وكان منهم العناد. واستمع قول الله تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل:١٤) وقوله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣).

وكما نرى تشابه بين موقف كفار قريش وما كان من عصيان إبليس، نراه مع أكثر من نبى آذاه كفار قومه. وتقرأ قول الله تعالى عن نوح وقومه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ (نوح:٥ ـ ٧).

فمشاهد قصة آدم قديمة متجددة. وروايتها أكثر من مرة، بأكثر من زاوية، تدلنا على استمرارها في تاريخ الإنسانية، مع تنوع صورها ووجوب الحذر من مداخل الشيطان إلى النفس، ومن تبعه من شياطين الإنس.

٣٣ـ تحليل لخطأ آدم

لم ترد الإشارة إلى خطأ آدم صراحة في سورة الكهف، وإن جاءت في مواقع أخرى من القرآن كسورة البقرة والأعراف وطه..

ونقف هنا عند مقارنة بين خطأ وخطأ.. خطأ إبليس وأركانه، وقد سبق أن ذكرناها وهى أربعة: العصيان، والاستكبار، والتبرير الفكرى، والإصرار على الخطأ.

ولم يكن الأمر من آدم كذلك..

لقد شهد الحوار ورأى نتيجته، وكان عليه أن يأخذ من هذا الموقف الدرس الذى ينفعه في المرحلة التالية من حياته، وهى مرحلة السكنى في الجنة، بعد مرحلة الخلق والتعليم وفيها شهد عصيان إبليس ونتيجته المريرة، وتحددت به عداوته لآدم وأولاده..

وفى الجنة أكرم الله آدم بحياة الأسرة والاستقرار كفل له المسكن والملبس والطعام والشراب.. وهذه الستة هى أساس الحياة الإنسانية. ونقرؤها في قوله تعالى:

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (البقرة: ٣٥)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ (طه: ١١٨: ١١٩)

يقول الإمام ابن كثير مفسرًا الجمع بين هذه الأربع في ثنائيتين: إن الجوع هو ذل الباطن، والعرى هو ذل الظاهر. وأن الظمأ هو حر الباطن، وأن الضحى (أي البروز للشمس) هو حر الظاهر ا.هـ. فهذه أربعة نجمع إليها الاستقرار والأسرة فتكون الأركان الستة لحياة الإنسان، بعد أن أكرمه الله بنعمة الوجود والعلم والإرادة.

ولقد امتازت هذه المرحلة بحرية الاختيار، ووجود البدائل أمامه يختار منها ما يشاء. وامتازت بالحدود. فهناك مدى لا يصح أن يتخطاه:

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:٣٥) فهذه جنة بكل ما فيها من ثمر وظل وماء وستر.. ماذا لو عاش فيها هو وزوجه سعيدا؟ ولينس أمر هذه الشجرة.. الشجرة الواحدة في الجنة الممتدة..

ولكن من أين جاءت الغواية؟

جاءت من الطموح والرغبة في أن يكون فوق ما أراد الله له أن يكون. لقد أكرمه الله بالعلم الذى لم يعطه لملائكته. ورأى في الملائكة حياة ليس فيها موت..

من هذا المدخل يمكن أن يأتى الشر. ووسوس له إبليس..

﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ (الأعراف:٢٠-٢١).

أيستطيع آدم أن يضم إلى العلم الخلود، فيكون فوق الملائكة علمًا، ويستوى معهم خلودًا؟ وهذا القسم.. هل يقسم إبليس كذبًا؟ لقد أقسم من قبل في موقف أشد فقال:

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص: ٨٢-٨٣).

نعم. إن الأمر غواية. ولكن القسم في ذاته صدق. لقد أقسم بعزة الله.. فهل يجرؤ إبليس على القسم الكاذب؟

كان من إبليس إلحاح. وكان منه تبرير وإغراء ودأب على الغواية.. ولقد كان هذا لآدم وزوجه. وتبين آيات سورة الأعراف أن الخطاب والحوار كان معهما وليس مع حواء وحدها وبهذا النص القرآنى تبدو المسئولية مشتركة بين آدم وزوجه ويقول الله تعالى بعد هذا: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (الأعراف: ٢٢).

الغرور الذى ظن آدم وزوجه أنه يرفعهما إلى المكان الأعلى، هبط بهما إلى الأدنى... حتى ستر الملبس نزع عنهما، وامتدت أيديهما إلى ورق الجنة يستران من أمرهما ما كشفته المعصية. واللباس ستر وطاعة الله ستر.. وصدق الله:

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف: ٢٦).

ونتأمل قول الله تعالى:

﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وما تفيد من استمرار الخصف وموالاته.. هل كانت الأوراق تتطاير، كما تطايرت آمالهما في الجمع بين العلم والخلود، ومساواة الملائكة في أمر، والتفوق عليهم في أمر آخر؟..

لو نظرنا إلى أسلوب الإغراء الذى اتبعه إبليس لوجدنا فيه الأركان الأربعة للمعصية.

- **أولاً**- توجيه الذهن إليها. وذلك قول الله تعالى في القصة حاكيا عن إبليس. هل أدلك؟
- **ثانيًا**- وثالثا التأثير النفسى والعقلى في قوله ((على شجرة الخلد وملك لايبلى؟))
- **ثالثًا**- الإصرار والمتابعة في قوله: ((فوسوس)) وقوله: ((وقاسمهما)) فالمكيدة محكمة الأركان..

وواضح ـ من أول الأمر ـ الفروق بين ما كان من إبليس وما كان من آدم.

إبليس بدأ من ذاته. هو الذى اختار المعصية، دون وسوسة ولا إغراء. ونفسه هى التى طغت، وتفكيره هو الذى فضل النار على الطين. وهو الذى أصر على موقفه حين سأله ربه عن سبب الموقف ثم تابع العناد..

ولم يكن من آدم وزوجه شئ من هذا.

ما فكر ابتداء في أمر شجرة الخلد، وما قبل الإغراء لأول مرة وبكل سهولة.. وإنما كان من إبليس الوسوسة والقسم والإلحاح.. وتوزعت نفس آدم بين الطاعة وبين التطلع إلى الخلود وملك لايبلى.. وانهارت حصون المقاومة في نفسه واحدا بعد واحد.. وغلب الطموح الطاعة،وتخطى آدم حدود الله وهو يعرف ما يفعل. وفى لحظة وجد ثيابه تتطاير، وأحس أنه لا يملك حتى الستر..

وكانت منه توبة سريعة وعودة إلى الله.

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٣).

ونحس في هذه الآية الكريمة ونظائرها صدق التوبة وحرارتها والجانب النفسى والعقلى فيها،. وتأمل تتابع الظلال والأضواء التى تتركها في النفس كلمات((ربنا)) بما فيها من التضرع.. أنت ربنا وخالقنا. و((ظلمنا أنفسنا)) بما فيها من إقرار بالذنب، وأنه ظلم. والظلم ظلمات. ثم طلب الرحمة والمغفرة، وفى غير طريقها الخسران. والرحمة فيض من الله، والمغفرة ستر. فالمغفر هو الذى يستر الفارس ويحميه. والغفران ستر الذنوب.. فاسترنا يا رب بسترك الجميل وارحمنا برحمتك الواسعة..

آماد واسعة بين هذا الموقف بعد المعصية، مهما تكن دوافعها ومبرراتها النفسية والعقلية، وبين ما كان من إبليس من عناد واستكبار وإصرار، ورأى آدم في نفسه، وبنفسه، ثمار الطاعة والمعصية..

كانت منه طاعة سابقة، عندما علمه الله فتعلم، واستودعه الأسماء فحفظها ووعاها، وأمره أن ينبئ الملائكة بالأسماء فكانت منه الطاعة والإنباء.. ورأى ثمرة طيبة وتكريمًا أن أسجد الله له الملائكة.. هذا هو الدرس الأول والنجاح الأول لآدم..

وجاء الدرس الثانى، وفيه تخطى الحدود فكان ما كان تغيره من سرعة الإحساس بالخطأ والتوبة..

وتقبل الله الغفور الرحيم توبة آدم وزجه وغفرها وسجل الله قبول التوبة في كتابه:

فى سورة طه: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾ (١٢١: ١٢٢).

وفى سورة البقرة: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٧).

وعند هاتين الآيتين ينبغى أن يقف كل إنسان: كأنه من آدم موقف أخطأ فيه، وسارع إلى التوبة، وقبل الله التوبة.. وبعد التوبة اجتباء وهداية وكلمات من الله..

وبعد الدرسين الأول والثانى، في مرحلتى الخلق الأول والحياة في الجنة.. تهيأ آدم لمهمة جديدة، هى الخلافة في الأرض وبها تبدأ المرحلة الثالثة من حياته..

ومسئولياتها أوسع.. كما كانت مسئوليات المرحلة الثانية أوسع من الأولى..

قل: إنه تدرج في التربية والتكوين، وإعداد للمهمة العظمى: أن يكون خليفة في الأرض للخالق جل وعلا..

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠) خليفة هو وذريته، : يقول الله تعالى:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النمل: ٦٢).

والخلافة كرامة وليست عقوبة. وتوسيع لدائرة المسئولية لا ضيقا ولا سجنا.. سبقها إعداد، وبعدها جزاء.. وما عند الله خير للأبرار.

٣٤ـ ويجعلكم خلفاء الأرض

يقول الله تعالى على لسان نبيه صالح عليه السلام مخاطبا قومه ثمود:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود:٦١).

ونقف عند كلمة ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ وهي من المهام الكبرى لاستخلاف الله آدم في الأرض..

وفى هذا الاستخلاف تتعدد الاتجاهات بين مؤمن وكافر، وقائم بالأمر وقاعد عن المسئولية.. وبين هذين تدافع صورة الله تعالى في قوله:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥١).

ووراء هذا كله ذلك الصراع القديم بين الاستقامة والغواية، كما تمثلها المرحلة الثانية من قصة آدم، وتحذير الله لنا جميعا في قوله عن إبليس في سورة الكهف:

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ (الكهف: ٥٠).

وما الولاية هنا؟

إنها الطاعة والانقياد.. طاعة الهوى والشهوة وعبادة المال والمنصب والجاه، والرغبة في البقاء والخلود، بغير طريق الطاعة.

وما عمران الحياة؟.. إنه ارتفاع بموادها الهامدة، وبالناس فيها، إلى مستويات التعاديه والإبداع وصيانة الحق والدفاع عنه..

والحياة في تقدمها، ارتفاع مستمر.. ولنتأمل قول الله تعالى:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (المجادلة:١١)

وقوله تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩).

ومع التقدم والارتفاع.. مع الطريق المستقيم الصاعد، تحس النفوس الطيبة بالافتقار الدائم إلى الله، والرغبة الدائمة في أن تسجد لله شاكرة.. والسجود في غايته مزيد من الإبداع والعمل والتواضع..

ثم يبين لنا الله تعالى مستوى المضلين فيقول:

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (الكهف:٥٠).

ولا زالت هذه أسرارًا مطوية يحاول الإنسان طرق أبوابها فلا يملك إلا الاجتهاد، وإلا ما أخبره به الحق تعالى:

كيف خلق الله السماوات والأرض؟

كيف بدأت الحياة بعامة؟

وكيف بدأت الحياة الإنسانية بخاصة؟

أنت أيها الإنسان ـ كائنا من كنت ـ لم تشهد خلق السماوات والأرض ولا خلق نفسك..

وتتكشف كل يوم أبعاد جديدة للحياة الكونية، وللحياة الإنسانية، ويتضح أمامنا أننا نعيش على شظية ضئيلة اسمها (الأرض) في المجموعة الشمسية، وهى إحدى المجموعات في مجرتنا ذاتها واسمها درب التبانة، وهى ليست سوى واحدة من عدد كبير من المجرات الأخرى التى تعد بالملايين..

وكل ما قاله العلماء عن (كيفية) خلق الإنسان لا يعدو أن يكون اجتهادات.. وكتاب الإنسانية ـ بالنسبة للإنسان ـ كتاب ضخم طوى الدهر معظم صفحاته.. وبين أيدينا منه الصفحات الأخيرة أو الحديثة..

ولا قيد على حركة الإنسان العلمية في تاريخه وتاريخ الكون.. فكل حركة واعية تزيده علما، وتزيده إحساسا بالتواضع في محراب الكون.. والكون مسجد كبير، كله آيات تدل على عظمة الخالق وروعة الخلق..

كل هذا ينعكس على نفس الإنسان مزيدا من الإحساس بعظمة الله، ومزيدا من الرغبة في طاعته وحب عباده والعمل من أجل خيرهم.

وإذا كانت المرحلة الثانية من قصة آدم ـ وهى حياته في الجنة ـ محدودة الأهداف والشخوص والأوامر والنواهى باعتبارها مدرسة تمهيدية لخلافته في الأرض، كما هو في قدر الله..

فإن حياته في الدنيا هى المدرسة الأوسع والأكثر تعقيدًا.. الأفراد القلائل أصبحوا شعوبًا وقبائل. اللسان الواحد أصبح ألسنة، اللون تعدد، البيئات التى سكنها الإنسان تمتد على سطح الأرض، بين جبالٍ وسهول، وسواحل ومناطق داخلية، تتباين حرًا وبردًا، مطرًا وجفافًا، غنىً وفقرًا..

والاختلاف في هذا كله مظهر لقدرة الله تعالى.. والحياة:

تكاملها في تنوعها، فليس البشر خلايا نحل أو وادى نمل تتكرر صفاتهم وتتشابه أعمالهم، وإن كان في الحيوان والنبات تباين..

بل إن روعة الحياة الإنسانية تتمثل في الجديد الذى يستطيع أن يبدعه في عالمى الأنفس والآفاق، فهو في المادة الصماء روحها.. كما أنه نفخة من روح الله تعالى.

ومع هذا التنوع قامت الدول ونشأت المدن، وقامت بينها علاقات الحرب والسلام. والتعاون والخصام، والعدل والظلم.. ووسط هذا كله نسمع قول الله تعالى:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه: ١٢٣ –١٢٦).

ومن هذا التعميم ننتقل إلى التخصيص المرتبط بسبب النزول. ونعود إلى أصحاب المصطفى ﷺ الذي اتبعوه على الإيمان والبذل. وكان منهم الأغنياء كأبي بكر وعبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان.. ومن هؤلاء من أكل الإسلام ماله، واشترى به من استطاع من المستضعفين والرقيق.. وأعتقهم لوجه الله تعالى.. وكان من الصحابة فقراء..

ورأت مشيخة قريش كيف يجمع مجلس محمد هؤلاء جميعا. زالت الفروق بين الغنى والفقر، والتقى في صف الصلاة من هم في ذؤابة القبائل ومن هم في أطرافها أو مواليها. ورأوهم في صف الصلاة أخوة في الدين يجمعهم جوهر التوحيد وكرامة الإنسان.. لا يتأفف غنى من ثياب فقير، ولا يضيق به في مجلس ولا تقتحمه عينه..

وقريش هى قريش بأمجادها ومواريثها ومفاخراتها، تدفع عنها بالسيف، فكيف تنزل عنها طوعا أمام كلمة التوحيد؟

وكأن عقلية مشيخة قريش في التكبر تحمل لفحة من نار إبليس التى تنطلق ألسنتها قائلة:

﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

وهؤلاء المستضعفون المؤمنون: إنهم الامتحان العسير الصامت أمام زهو قريش وخيلائها وأموالها وأنسابها.

ويعقب الإمام الفخر الرازى على الربط بين موقف قريش من المستضعفين، وموقف إبليس من آدم..

((إنما قال للكفار المفتخرين بأنسابهم وأموالهم على فقراء المسلمين.. أفتتخذون إبليس وذريته أولياء من دون الله، لأن الداعى لهم إلى ترك دين محمدﷺ هو النخوة وإظهار العُجب. فهذا يدل على أن كل من أقدم على عمل أو قول بناء على هذا الداعى فهو متبع لإبليس حتى أن من كان غرضه في إظهار العلم والمناظرة، التفاخر والتكبر والترفع، فهو مقتد بإبليس. وهو مقام صعب غرق فيه أكثر الخلق. فنسأل الله الخلاص منه..

ثم يقول: وإذا جهلتم هذه الحالة (أي خلق أنفسكم وخلق السماوات والأرض) فكيف يمكنكم أن تحكموا لأنفسكم بالرفعة والعلو والكمال، ولغيركم بالدناءة والذل؟ بل ربما صار الأمر في الدنيا والآخرة على العكس فيما حكمتم به(تفسير الفخر الرازى ١١: ١٣٨ –١٣٩)

وفى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ العضد: ما بين المرفق إلى الكتف، والجمع أعضاد. ويستعار للمعين والنصير. يقال عضده أي: قواه وأعانه.

ووصف الله هؤلاء القوم بالمضلين، يدل على أن ضلالهم يتعدى أنفسهم إلى غيرهم، وعلى المؤمنين أن يحذروا هذا الميل عن الطريق.. وصدق الله العظيم في خطاب رسوله والمؤمنين:

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ (الكهف: ٢٨).

٣٥ـ وجعلنا بينهم موبقا

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ (الكهف: ٥٢، ٥٣).

وتنقلنا هذه الآيات مرة أخرى إلى مشاهد الآخرة، بعد أن كنا في ذكر الخلق الأول في الآيات السابقة..

وكأن الحركة النفسية والفكرية تنتقل بنا مسرعة بين زوايا مثلث: الأولى الخلق، والثانية العمل في الدنيا، والثالثة الجزاء الأخروي. ويتم الانتقال في آية أو شطر آية.. والإنسان في نقطة وسط المثلث تتجمع في ذهنه وقلبه هذه الإشعاعات، فيرى الوجود كله في لمحة.. بدءا وعملا وجزاء..

فى هذا اليوم الذى يصدر فيه الناس أشتاتا ليروا أعمالهم.. يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر، مهطعين إلى الداعي يقول الكافرون هذا يوم عسر، يخاطبهم أحكم الحاكمين: ﴿ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ ولا يملكون إلا الامتثال، وهو في هذا الموقف عذاب وخزى..((فدعوهم)).. ومن يملك الإجابة في يوم يرتفع فيه نداء الحق ((لمن الملك اليوم؟)) فتجيب الخلائق جميعا ((لله الواحد القهار)). ولا يملك الأرباب المتألهون والجبابرة إلا الصمت ناكسى رءوسهم ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ وما الموبق؟ إنه المهلك أو البرزخ البعيد.. فلا تواصل بينهم يوم القيامة كما كانوا في الدنيا، وإنما تباعدوا وتقطعت بهم الأسباب.. هذا وجه في تفسير الآية..

وقد يكون الشركاء الذين زعمهم الكفار، أبرياء من ادعاء الألوهية، وإنما عبدهم قومهم ـ أو بعض الناس ـ على غير رغبة منهم..

ولقد سجل القرآن الكريم كيف عبد بعض الناس الملائكة، أو عبدوا أنبياءهم. وفى خواتيم سورة المائدة تقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

(المائدة: ١١٦ – ١١٨).

فالنبيون والملائكة صائرون إلى ما أراد الله لهم من الكرامة والذين كفروا بما أنزل الله من الحق والتوحيد سيجزيهم الله بما عملوا.. وبين الفريقين موبق هذا وجه آخر في تفسير الآية ونقرأ هذا الوجه عند الإمام الفخر الرازى ونقرأ الوجه الأول عند الإمام ابن كثير.

وفى قول الله تعالى ﴿ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ ﴾ رأى فعل ماض والآخرة غيب مستقبل.. كأنه من اليقين بحدوثه قد كان.

﴿ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ والظن هو اليقين كما في قول الله تعالى في وصف المؤمنين:

﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (البقرة:٤٥- ٤٦).

﴿ وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴾ لا طريق يعدل بهم عنها..

ففي الآية ثلاثة صنوف من العذاب متلاحقة:

- **الأول:** رؤية النار.
- **الثانى:** اليقين من مواقعتها.. كأنها تقرب منهم وهم يقتربون منها.

- **الثالث:** لا مهرب.. ولكن طريق واحد يؤدى إليها.. هذا بعد تعددت بهم سبل الأهواء والشهوات والآلهة المعبودة ضاع هذا ولم يبق أمامهم إلا طريق النار.

والصورة مع المؤمنين مختلفة.. بل هى الوجه الآخر لهذه الصورة كأن لهم في الدنيا طريق واحد هو قول الله تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام:١٥٣).

لم تتوزعهم الأهواء والشهوات وما تفرقت بهم السبل وفى الآخرة تعددت أمامهم أبواب النعيم وأسبابه يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٥ –١٧).

فلكل مؤمن منهم، ما تقر به عينه، وفوق هذا جميعا رضوان من الله أكبر..

حتى طعامهم، لهم فيه متعة الاختيار: ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾

وفى الفاكهة جمال. ولكل لون وشكل وطعم متعته ولذته.. والشراب أمامهم متنوع..

فالتعدد والتنوع قائم بعد أن استقام الطريق في الدنيا:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (يونس: ٢٦).

والقتر القلة في النفقة.. فكأن الله صان هذه الوجوه الطيبة من الضعف المادى والمعنوى من قلة الرزق وقلة التكريم.

ونعود إلى الآية الكريمة: ﴿ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴾ ونستعيد صنوف العذاب الثلاثة المتلاحقة: رؤية النار. اليقين من مواقعها. أن لا مصرف عنها، لنرى كيف يكافئ الله المؤمنين بثلاثة صنوف من التكريم..

فى مقابل رؤية النار، واليقين من مواقعتها نقرأ قول الله تعالى:

﴿ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (الحديد: ١٢).

(فهذه تقابل الثانية أي اليقين من مواقعة الكفار النار)

تبقى الثالثة وهى ﴿ وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴾ يُقابلها تفتيح أبواب الجنة للمؤمنين:

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٣ –٢٤).

فهذه ثلاثة تقابل ثلاثة.. نراها في أكثر من موضع من القرآن،وسنراها فيما نستقبل من آيات سورة الكهف إن شاء الله، وفى خواتيمها ومن بعدها الآية الخاتمة المرتبطة بمدخل السورة وهى توحيد الله تعالى، والاستقامة على ذلك، وحسن المثوبة عليه.

٣٦ـ معجزة القرآن

يقول الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً ﴾ (الكهف: ٥٤).

يقول القاضى عبد الجبار بن أحمد(٤١٥) في كتابه ((تنزيه القرآن عن المطاعن (ص٢٣٩) في شرح هذه الآية:

وربما قيل في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ كيف يصح ذلك، وإنما ذكر تعالى فيه بعض الأمثال. وجوابنا أن ذلك مبالغة كقوله تعالى: ((وأوتيت من كل شئ)) (وذلك عن ملكة سبأ). ومذهب العرب في ذلك معروف، والمراد: من كل مثل يحتاج إليه العباد في أمر دينهم. وما هذا حاله موجود في القرآن من صفات الأمور الدنيوية وصفات الآخرة وغيرهما.اه

والأمثال التى صرفها الله تعالى في هذا المقام كلها دفاع عن مكانة الفقير والمستضعف، وإعلاء شأن الإيمان والعقيدة، وإعلام لمشركى العرب لما افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم، أن قولهم فاسد، وشبهتهم باطلة.. ذكر الله أمثله مثل آدم وإبليس ومن قبله مثل الرجلين وبينهما صورة الدنيا في زهوها وذبولها وفرحة الحياة بالمال والبنين ولا يبقى من هذا كله إلا العمل الصالح والنية الصالحة والذرية الصالحة.

ألا يستوقف هذا النظر طويلا؟ حينما نرى الدنيا بعد هذه القرون الطويلة ومن فيها يفرقون البشر بين الذين يملكون والذين لا يملكون وبين الذين يعرفون والذين لا يعرفون ويقسمونها بين الشمال الغنى والجنوب الفقير؟ ألا نراها لا تزال تتعثر نفسيا وفكريا على طريق المودة والإخاء الذى أقامه المرسلون، وجعله الله لنا في صلاتنا عبادة وفى حياتنا صراطا وفى الآخرة نورا؟

وصدق الله العظيم ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢) وذلك بإقامة الحجة عليهم، وإثبات ضلالهم بأكثر من طريق.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴾

ما سنة الأولين؟ وما العذاب القبل؟

وما منهج القرآن في الدعوة إلى الله، وكيف يختلف عن سنة الأولين؟

إن القران الكريم هو معجزة الله الباقية، بعد عهد النبوات والمعجزات.

ولك أن تنظر إلى ما أيد الله به أنبياءه من الآيات الدالة على نبوتهم، أين هى الآن؟ أين سفينة نوح؟ وأين عصا موسى؟ وأين ناقة صالح؟وأين الرجل الذى أحياه عيسى والمرضى الذين شفاهم بأمر الله؟ وهب أننا عثرنا على سفينة نوح، فهل كان بناؤها هو المعجز، أم سيرها باسم الله مجراها ومرساها في موج كالجبال.. ولا يمكن أن يعود التاريخ لتصوير هذا المشهد.. ولا المشهد المتمثل في قول الله تعالى:

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود: ٤٤).

كذلك ماحاق بمن كذبوا الرسل، كالخسف والعواصف المدمرة والسيول الجارفة كمثال، نقرأ قول الله تعالى عن قوم هود:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأحقاف: ٢٤- ٢٥).

معجزات الأنبياء قبل الإسلام كانت كونية تأتى فيها الظاهرة تأييدا للنبى، أو عذابا لقومه إذا كذبوه.. وجاء القرآن الكريم يقص ذلك، ويؤكد ـ تاريخيًا ـ حدوثه:

ولكنه في ذات الوقت جاء ليختم عهد المعجزات الكونية، فلم تكن هى آيته الكبرى: تأييدًا له أو انتقامًا من المكذبين. وبيّن القرآن هذا بكل وضوح. وأنه جاء يخاطب العقول، بالحجة والبرهان.

وفى نفس السورة التى يؤكد فيها هذا ـ وهى سورة الكهف ـ يذكر معجزات كونية مع أنبياء وصالحين وشباب مؤمن ضرب الله على آذانهم في الكهف سنين عددا ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ (الكهف: ١٢).

فى نفس السورة التى ذكر فيها كل هذا القصص، يأبى القرآن الكريم، إلا أن يحاكم الناس إلى العقل.. بل إنه في سبب نزول السورة، وتحدى كفار قريش الرسول في أمور من العلم، لم ينزل الوحى في الموعد الذى رغب فيه الرسول، وكان هذا خطوة في التكوين النبوى، الذى يمتثل لأمر الله، ولا ينبغى له أن يحدد للوحى موعدا..

يتلاقى هذان الأمران معا في سورة الكهف، وتأتى السورة توثيقا تاريخيا لأمور وتأكيدا للمنهج العقلي الذي يدعو إليه القرآن.

وفى هذا الضوء نعود إلى الآية الكريمة:

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾

جاء في معنى قبلا التفسيرات الآتية:

١- أنها جمع (قبيل) بمعنى ضروب من العذاب تتواصل مع كونهم أحياء.
٢- مقابلة وعيانا
٣- قبلا(بفتحتين) أي مستقبلا.

والمعنى (كما يقول الفخر الرازى ١١: ١٤٢) أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا عند نزول عذاب الاستئصال فيهلكوا، أو أن يتواصل أنواع العذاب والبلاء حال بقائهم في الحياة الدنيا. وأعلم أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا على هذين الشرطين، لأن العاقل لا يرضى بحصول هذين الأمرين، إلا أن حالهم شبيه بحال من وقف العمل على هذين الشرطين. ثم بين الله تعالى أنه إنما أرسل الرسل مبشرين بالثواب على الطاعة منذرين بالعقاب على المعصية، لكى يؤمنوا طوعا، وبين مع هذه الأحوال أنه يوجد من الكفار المجادلة بالباطل لغرض دحض الحق... وأنهم اتخذوا آيات الله، وهى القرآن وإنذارات الأنبياء هزوا..

ولو عدنا إلى سورة الإسراء، رأينا فيها تصويرا لحوار بين كفار قريش والرسول حول المعجزات الكونية:

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ (الإسراء: ٩٠- ٩٣).

ونقرأ حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام- تأكيدا لمعجزة القرآن، وإنهاء لعهد المعجزات الكونية وإعلاء لشأن العقل، والمنهج العقلى:

((ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحى الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة))(رواه مسلم عن أبى هريرة- مختصر صحيح مسلم للمنذرى حديث رقم ١٩ ص ١٣)

ذلك لأن مخاطبة العقل هو الأمر الباقى. ومعجزات الله وآياته تتمثل أمامنا في هذا الكون وفى كتاب الله في كل آن أما المعجزات الكونية المرتبطة بزمان ومكان محددين،فهذه يحصرها المكان، ويطويها الزمان. ويؤكد القرآن خطاب العقل. فيأمر الله رسوله أن يخاطب قومه به:

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ٤٧ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٤٨ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ٤٩ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ (سبأ: ٤٦- ٥٠).

أمر آخر نذكره بشأن المعجزة الكونية. وإن نسخ القرآن تجددها كما أكد حدوثها مع النبوات السابقة. فالمعجزة ليست خرقًا لنظام الوجود. وإنما المعجزة قانون ذاتها. إنها قانون أعلى، يحكم قانونا دونه.. ولكل من القانونين مستواه، دون تعارض بينهما ، وإنما تناسق وحكمة هى من صنع العزيز الحكيم.

وفى سورة الكهف نرى مستويات هذه القوانين في المعرفة. والعلم، وفى التصرف على أساسها ، وفى النوم واليقظة وامتدادهما ، في العواصف والصواعق حين ترتبط بظلم البشر وتأتى انتقامًا إليها، كما نرى كيف ترتبط القوة بالعدل، والقدرة مع ضبط النفس، واستنقاذ الشعوب عن طريق العمل والمشاركة وتأكيد العلاقة بين الجهد والنتيجة كما في قصة ذى القرنين..

مستويات متعددة من التصرفات والقوانين، منها ما يقرب إدراكه، ومنها ما يعمق في أسرار الغيب كقصة موسى والخضر.. وكل ما جاء متعمقًا في الغيب أو من قانون أعلى نؤمن به، دون أن نطالب الرسول بإعادة ناموس أذن الله في طيه، ونشر لنا ناموسًا هو العقل والتفكير، في كتاب هو حجة العقل والتفكير..

وفى هذا نرى كيف اللقاء الكريم بين الشرع والعقل في الإسلام وتعاونهما في صياغة الحياة السوية.

والآن: تعالى معى نقرأ سطورا عن العلاقة بين العقل والشرع من كتاب معارج القدس في معرفة مدارج النفس للإمام الغزالى (ص٦٤).

إعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع. والشرع لم يتبين إلا بالعقل. والعقل كالأس، والشرع كالبناء. ولن يغنى أس ما لم يكن بناء. ولن يثبت بناء ما لم يكن أس.

وأيضًا فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع. ولن يغنى البصر ما لم يكن شعاع من خارج. ولن يغنى الشعاع ما لم يكن بصر. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ (المائدة: ١٦، ١٥).

وأيضًا: فالعقل كالسراج. والشرع كالزيت الذى يمده. فما لم يكن زيت لم يحصل السراج. وما لم يكن سراج لم يضئ الزيت. وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾.

فالشرع عقل من خارج. والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان.أهـ

نسأل الله أن يكرمنا بنور العقل ونور الشرع لنسير في نور على نور.

٣٧- وربك الغفور ذو الرحمة

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن تَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾

بعد أن حكى الله تعالى عن الكفار جدالهم بالباطل، بين في هذه الآيات بعض صفاتهم،وأبرزها اثنتان:

الصفة الأولى: الظلم. وهم قد ظلموا أنفسهم ومجتمعهم، وظلموا المؤمنين بالإعراض عن الحق. هذا الحق الذى لا يُنسب إلى بشرٍ أو قبيلٍ من الناس، وإنما هو هداية رب الناس للناس.

نعم، لقد جاء القرآن عربى اللسان، عربى المبعث، ونزل الوحى على الرسول عليه الصلاة والسلام مسئولية، دون اختيار منه.

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ (الحج:٧٥).

وعرضه على الناس جميعا: ما اختص به بعض قومه، أو بعض أهله.. فهو من أول أمره رسالة عامة شاملة:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(الأعراف: ١٥٨).

فهو ﷺ مبلغ عن ربه. لا يسأل الناس على الحق أجرا.

والله تعالى ـ الذى اختاره ـ هو سبحانه الذى أيده بالوحى، وقد عجزوا عن تحديه. وصدق الله العظيم:

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣).

الأمر إذن خرج عن دائرة الحوار العقلى، والفكرى الموضوعى. ودخل دائرة الجحود، التى يستعين فيها كفار قريش بأحبار اليهود،ويشتدون على الرسول وأصحابه إيذاءً بدنيًا ونفسيًا، ومقاطعة اقتصادية وإرهابًا وعدوانًا.

هذا هو الظلم الذى اجترحه كفار قريش: ظلم الحق في ذاته، وظلم الرسول وأصحابه، وظلم أنفسهم وأتباعهم بانصرافهم عن الحق.

ونقف في الآية عند لفظ (آيات ربه) فهذا الظالم لنفسه جاءته الآيات من ربه: ربه الذى خلقه وسواه وعدله. ربه الذى أنشأه في الأرض واستعمره فيها. ربه الذى جعل لهم الحرم الآمن، ورزقهم من الثمرات، وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف..

ألا يؤمنون بإبراهيم؟.. ويعيشون في بقية مما ترك؟ وإن خلطوا بها الأوثان وأدخلوا على الحنيفية ما لم يأذن به الله؟ إنهم آثروا الشرك على التوحيد، والظلم على العدل، والظلام على النور.. وتميز في مكة فريقان..﴿ هَـٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ ﴾ (الحج: ١٩).

وفى قول الله تعالى: ﴿ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ ﴾، لقد فهمنا الإعراض.. فماذا قدمت أيديهم؟ النسيان هنا هو التغافل عما قدمت أيديهم من الأعمال المنكرة والمذاهب الباطلة.

أمامهم آيات الله البينات. وأمامهم رمز الشرك والوثنية، آيات الله جاءت من عند الله. ورمز الشرك صنعتها أيديهم، وما أنزل الله بها من سلطان. ثم ادعوا من عند أنفسهم أن هذه الأصنام هى شفعاؤهم عند الله، وأنها تقربهم إلى الله زلفى.. نسوا أنهم هم أنفسهم الذين ابتدعوا هذا كله، ثم عكفوا عليه، ثم دافعوا عنه، ضد ماذا؟ ضد صريح الإيمان والتوحيد الذى جاءهم به الرسول من عند الله مؤيدًا بالوحى الذى لا يملكون معارضته.. فالظلم مزدوج تمثل في الإعراض عن الحق، وتجاهل أنهم هم الذين صنعوا الباطل.

الصفة الثانية: تبدو في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾ والأكنة جمع كنان وهو الغطاء الذى يكن فيه الشئ.. مثل غطاء وأغطية (مفردات الراغب الأصفهانى ص٤٥٩).. والوقر الثقل. تقول نخلة موقرة أى ثقل حملها..

وكأن هذه الآية هى النتيجة المنتظرة لما جاء في صدر الآية الكريمة:

هم الذين أعرضوا عن آيات الله، وهم الذين صنعوا الشرك ثم عبدوه من دون الله.. ماذا يترتب على ذلك؟ أن تصبح قلوبهم في أغطية من صنع أيديهم، وكأن آذانهم ملئت بأثقال.. وهل تتحمل الآذان ثقلا؟ وتأمل قوله تعالى: ((وفى آذانهم))..

وإذا كانت حروف الجر يحل بعضها محل بعض، إلا أن استخدام ((فى)) هنا يحمل بشاعة ما يحملون.. ولو حولنا هذه الصورة المعنوية إلى صورة حسية لازدادت بشاعة ما صنعوا بأنفسهم.. ولك أن تتصور قلبا، ومن حوله غطاء أصم وآذانا مثقلة بما تحمل.. جزاء بما قدمت أيديهم..

ثم يخاطب الله نبيه قائلا: ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾

إن تدعهم وهم في إصرارهم على البعد عن آيات الله، والعكوف على أصنامهم ((لن يهتدوا أبدا)) أما إذا حطموا الأكنة التى صنعوها بالشرك حول قلوبهم، وتخلصوا من الوقر الذى يملأ آذانهم، وطهرت مسالك البصر والعظة.. هنا يستطيع الإيمان أن يجد طريقه إلى السمع والبصر والقلب. وصدق الله:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق: ٣٧)

من أجل ذلك تأتى الآية التالية تحمل من الله بشارة ونذيرا:

بشارة: في قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾.

نذيرا: في قوله تعالى: ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن تَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ (والموئل المنجى والملجأ).

والله سبحانه قدم في هذه الآية المغفرة بصيغة المبالغة: الغفور.. فذنوبهم كثيرة. وهم الذين أسرفوا على أنفسهم، ولكن غفران الله ورحمته أوسع.. وإن كفار قريش يعلمون ما حل بالأمم السابقة من العذاب، عندما أعرضوا عن هدى الله: قوم عاد على طريقهم إلى اليمن، وثمود على طريقهم إلى الشام.. أصحاب مدين.. وقوم لوط.

والله تعالى يخاطبهم، ويذكرهم بما يشهدون:

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(الصافات: ١٣٧- ١٣٨)

ولو أخذ الله قريشا بالعذاب، كما أخذ الأمم السابقة لعجل لهم العذاب. ﴿ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلَۢا ﴾ ما هذا الموعد؟.

يمكن أن يكون يوم ((بدر)) وفيه لقيت قريش هزيمة، هى الأولى في تاريخها أمام نفر من أبنائها الذين هاجروا بإيمانهم مع نفر من الذين آووا ونصروا.. وشهد ميدان بدر قتلاهم وأسراهم وجرحاهم وعودة المهزومين.. هذا اليوم الذى وصفه الله تعالى بقوله:

﴿ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴾

(الحج: ١٩-٢٠)

ذكر المفسرون أنها نزلت في بدر بعامة، أو نزلت في الذين بارزوا يوم بدر، أو في الذين آمنوا والذين كفروا(تفسير ابن كثير)

ويمكن أن يكون الموعد الجزاء يوم القيامة﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٣٠).

وبالرغم مما ألحقته قريش بالمسلمين في غزوة أحد، إلا أنها لم تستطع أن تحقق الهدفين الريئسيين من المعركة، وهما: اقتحام المدينة، أو قتل الرسول عليه الصلاة والسلام.

وتوالت محاولاتها، إما وحدها أو متعاونة مع اليهود داخل المدينة وخارجها ومع مشركى العرب، ولكن استطاع الإيمان أن يشق طريقه ويستعيد مكة، ويعم الجزيرة العربية ودخل الناس في دين الله أفواجا..

لقد رأت قريش كيف تحقق وعد الله للمؤمنين أكثر من مرة، ولم يكن أمام هذه القلوب إلا أن تستجيب. ويأبى الله إلا أن يتم نوره.